النظرية الأدبية وتداخل المعرفة الإنسانية

المعرفة البشرية معرفتان أو نوعان، معرفةٌ منطقيةٌ عقليةٌ، تتصل بالأمور الكُلّية، وتعميم القوانين المُسْتَنْبَطة على أفراد الجنس الواحد، ومعرفةٌ فنيةٌ حدْسية خيالية؛ هي المعرفة الأدبية، وكمثال على الفرق بين المعرفة العلمية والمعرفة الفنية نأخذ نظرةَ كل منهما للعَين البشرية. إنّ جميع العُيون في نظر العالِم تتألف من شبكية وقَرَنيّة وقُزَحيّة، تستوي في ذلك كل أشكال وألوان العيون، الزرقاء والسّوداء والبُنّية... لأنّ العين الحوْراء التي تُعانقُ نظرتُها نظرتَنا، فإذا نحن نَشَاوَى نكاد من سُكْرٍ نَتَرنّح، إنَّ هذه العين بهذه المواصفات، وبكل هذا التأثير ليستْ في نظر العالِم إلا عضو يتركب من الأجزاء المعروفة، وهي في التحليل الأخير ليستْ إلاَّ عضو يتألف من آزوت وفحم وماء، وليستْ العين وحدها بل كل الأعضاء، بل كل مخلوقات الله، العينُ والصّدر والشّعر، الرجل والمرأة، الإنسان والحيوان آزوت وفحم وماء، تستوي في ذلك المادة الحية والمادة الجامدة إلكترونات وبروتُونات تدور وتدور، هذه هي نظرة العالِم[1]

أما نظرة الأديب فأمر آخر، الشاعر يبعث الحياة في الشيء الموصوف، فيكشف عن الحقيقة البَاطنة في الأشياء، يُسمِعُنا خرير الجداول في الحقول، وحفيف الأوراق، وصوت النّفس البشرية في تحدّيها للزّمن الغاشم، الأديب يزيح عن الأشياء حجاب العادة والرّوتين، ويسمحُ لنا بالنّفاذ إلى جوهر الأشياء والتّمتع بالحياة. وإذا كان العِلْم يصحح بعضه بعضًا، فما كان عِلْمًا في قرون ماضية صار الآن تاريخًا للعلم، إذا كان العلم كذلك، فإن الأمرَ يختلف بالنّسبة للأدب، إنّ ما قاله امرؤ القيْس أو شكسبير لا يزال حيًّا لا يَبْلى، لأنّ الحقيقة التي يُعْنى بها الأدب العظيم تظلُّ حيّةً باقيّةً في وجدان الأمة والإنسانية جمعاء.

إنّ الأدباء هم بمثابة قلب الشّعب وضميره وإحساسه، وما يُنْتِجه الأديب يُعبّر عن الجماعة رغم انطلاقه أساسا من الفرد. وإذا كان العلم ضروريا، فإنّ الأدب يقف معه على درجة المُساواة، فكلاهما يشكل جزءًا من الجانب العقلي النّظري في حياة الأمة، وإذا كان بعض النّاس يميلون إلى النّاحية العلمية، فإنّ بعضا آخر منهم يميل إلى الأدب، ووجود كل منهم ضروري بالدّرجة نفسها، ولا تناقض بين الصِّنْفين، فالحياة تتسع للاثنين للمعايشة في أمن وتعاون وسلام، وكل طرحٍ يُقْصي الطرف الآخر هو طرح يدل على قِصر النّظر. خاصة وقد تعانق العلم والأدب وتعاونا، فاسْتُخْدِمت العلوم الإنسانية كثيرٌمن المناهج العلمية، واستخدمتْ العلوم الخالصة الأدب لإضفاء مسحةٍ إنسانية جمالية على الأمور العلمية. وكلّما حقق المُجتمع تطورًا وتقدمًا مسَّ هذا التّقدم العلم والأدب بدرجة متقاربة، وعليه فإن التّقدم التّكنولوجي لم يكن ي ولن يكون على حساب الأدب، ويخطئ أولئك الذين يَدقون ناقوس الخطر أمام الأدب حين يجدون أنّ جهاز الإعلام الآلي يُمْكن أن يحفظ كل الكلمات التي يحتاجها الشّاعر لتقفية القصيدة

---

1 - عبد الكريم الشريف: (المعرفة الفنية والمعرفة العلمية)محاضرة أُلقيتْ على بمعهد الآداب بجامعة باتنة في 1986/09/03

بقافيةٍ مُعيّنة، يرى هؤلاء أنّ الشاعر مهددٌ في موهبته وإبداعه وهي رؤية خاطئة بل وساذَجَة، فما هو محفوظ في الإعلام الآلي كان من قبل موجوداً في المعجم فهل المعجم يُغْني عن القصيدة [2]، وكذا المعلوماتية يمكنها أن تخْدُم الشّاعر، ولكنها لن تلغيَّه ولن تنال من موهبة الإبداع لديه. وإذن فبين مختلف العلوم تكاملٌ لخدمة الإنسان، ونظريّة الأدب باعتبارها جديدة نسبيا تطمح إلى الاستفادة من العلم لمعالجة الأدب.

علاقة الأدب بعلم الاجتماع

العلاقة بين علم الاجتماع والأدب علاقة وثيقة بل ومتداخلة، ولعل من أبرز من تناول هذه المسألة:

"مدام دي ستال -Madame de Staël 17661817" فقد تناولت علاقة الأدب مع المؤسسات الاجتماعية مثل الدين والعادات والأخلاق، وكيف يؤثر التّطور الحاصل في مجالٍ من المجالات على الأدب والفكر، ومعلوم أنَّ المدرسة الطّبيعية في الأدب قد ربطت الأدب بالمجتمع من خلال ما أورده "هيبوليت أدولف تينHippolyte Adolphe Taine 1828-1893 " و "سانت بيف Charles Augustin Saint Beuve18041869- "كما لا يمكن إهمال الإشارة إلى تولستوي " الكونت ليف نيكولا يافيتش 1828-1910". كما أن نظرية الانعكاس قد ربطت بين الأدب والمجتمع، وقد اتجه البحث لدى بعض الرُّواد إلى توليد نظام يُمثل بِنْية جديدة تلتحم فيها القيم الجمالية بالقيم الاجتماعية، ولكن نظرية الانعكاس على العموم كانت قد اهتمت كثيرا بجَمْعَنَة الخطاب الأدبي، وبالاهتمام بالبنية الدّالة كما عند "قولدمان" ورؤية العالم، وبعبارة أخرى فإن هذا الاتجاه اهتم بالمدلولات على حساب الدوال الأمر الذي سيعمل على استدراكه " ميخائيل باختين[3] Mikhaïl Bakhtine" الذي كان له الدور البارز في مجال البحوث السّوسيوأدبية، حيث صاغ نظرية نقدية تربط بين السّمات الفنية الأدبية والعناصر الإيديولوجية في الرواية، فتلغي القطيعة الموجودة بين ثنائية الشكل والمضمون. ويبلغ الأمر ذُرْوَته مع "بيير زيما Pierre Zima "فيما يسمى بالسوسيو نصية.

علاقة الأدب بعلم النّفس

---

2 - صالح مفقوده: (إشكالية الأدب والتكنولوجيا) مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد5 ديسمبر 2003 ص ص 131-138

3 ولد ميخائيل باختين عام 1895 في أوريل ابنا لعائلة أرستقراطية ما لبثت أن أضْحت مُعْدَمَةً، فقد كان والده كاتبا في مصرف. درس فقه اللغة في جامعة "أوديسا"ومن ثم في جامعة "بتروغراد "وتخرج عام 1918. عمل في سلك التعليم الابتدائي، وتزوج في 1921، وفي العام نفسه أصيب بالتهاب عظام حاد مزمن مما أدى إلى بتر رجله عام 1938. ألقي عليه القبض عام 1929 لأسباب مجهولة، لكنها قد تكون متعلقة بارتباطاته بالمسيحية الأرثوذوكسية، حكم عليه بالسجن خمس سنوات، ولظروفه الصحية تم التخفيف بالنفي إلى قازخستان. عمل حينها في أعمال كتابية لدى مؤسسات مختلفة، ثم حصل على وظيفة في كلية المعلمين، ثم استقر في "كمر "القريبة من موسكو ودرس بها اللغتين الروسية والألمانية، ثم مارس بعض النشاطات الأدبية. لما تدهورت صحته استقر في موسكو، ووافته المنية عام .1975

هناك علاقة وثيقة بين الأدب وعلم النّفس، أشار لها من قبل كل من "أفلاطون"427 - 347 ق.م و"أرسطو"384-322 ق. م، فقد ربط أفلاطون بين الشعر والعاطفة، فأعفى الشّعراء من جمهوريته لهذا السبب ولم يُبق منهم إلا من كان يشيد بالأبطال، وفي رأيه فإنه لا يجوز للشاعر أن يقول قصائد تتعارض مع ما هو شرعي وخيّر، ولا يجوز له أن يُذيع قصائده قبل عرضها على القُضاة وحرّاس القوانين، ويتفق أرسطو مع أستاذه أفلاطون في ربط الشّعر بالنفس وبالعاطفة، ولكنه على خلاف أستاذه يرى أن الشّعر يعيد للحياة التوازن فالتراجيديا تجعل المُشاهدين أكثرَ تَوازنًا لأنها تُتيح لنا تصريف العواطف المكبوتة الزائدة "نظرية التطهير= كاتارسيس".

العلاقة بين الأدب وعلم النّفس تبدأ من المنبع.من الشاعر الذي لا يُحاكي الطبيعة كما هي، بل كما يجب أن تكون، وهو لا يحاكي الشخصيات بقدر ما يحاكي الأفعال، وهذه العلاقة تتمثل أيضا في المَصب، وهو التأثير على المتلقي، وفي الحديث عن ربط الأدب بعلم النفس، يُمْكِن الإشارة إلى قضية الإلهام في الإبداع الأدبي Inspiration وربّما كان القول بالإلهام كتفسيرٍ لعملية الإبداع لدى الشعراء هو أقدم ما قِيل في هذا الصّدد لدى الفلاسفة منذ "أفلاطون" وعند الشّعراء منذ "هوميروس" حيث بدأ الإلياذة باستجداء ربّات الشّعر أنْ تَنْعمن عليه بالإلهام. وربْط الشّعر بالآلهة لها ما يُناظرها لدى العرب الذين اعتقدوا بوجود شياطين للشّعراء ينطقون على ألسنتهم، وسموا لكل شاعر شيطانه، وتوهموا أنّ هناك واديا يُسمى واد عبقر تسكنُه الشياطين. وبمرور الزمن استُبْدِلتْ كلمة الإلهام بالحدْس ونجد هذا المصطلح لدى "بندتو كْرُو تْشِه" الإيطالي؛ وتعني كلمة حدْس المعرفة المباشرة غير المعللة. ويُسمي"فرويد"الأساس الذي تعتمد عليه عملية الإبداع بالتّسامي «**يرتبط التّسامي بالدافع الشّبَقِي، لأنّه هو الموضوع الذي تجري عليه هذه العملية** »[4] التسامي هو استبدال أهداف محظورة وممنوعة اجتماعيا بأهداف أرفع قيمةً من النّاحية الاجتماعية بحيث يتم إخفاء الرّغبات الممنوعة، وبذلك تَحْدُثُ عملية التّسامي، ومعلوم أنّ "فرويد" يرى النشاط النّفسي مُوزَّعًا بين قِوًى ثلاثة هي: الأنا، والأنا الأعلى، والْهُوَ، والصّراع قائم دوما بين هذه القوى، ومُحصلة الصّراع تتجلى في سلوك الشّخص في موقف ما. والتّسامي هو واحد من مجموع آليات مثل الكبت – القمع - التسامي، وهذا الأخير يؤدي إلى إظهار عبقرية وامتياز في الفنّ أو في العلم، وكأنّه تعويض عن النقص أو هروب من الواقع، الفن إذن هو تعويض أو هو عِصْمة للفنان من الانهيار، يرى "فرويد" أنّ الفنان هو في الأصل رجل انصرف عن الواقع لأنّه لا يستطيع أنْ يتقبل ضرورة التّجاوز عن إشباع الغريزة في حالتها الفطرية، وهو بالتالي يُطلِق العنان لرغباته الغزلية الطموحة في حياة وهمية ...إذْ أنّه بما له من الموهبة الخاصة يُشكِّل أوْهامَه هذه كأنها نوع جديد من الحقيقة، ويُضفي عليها النّاس المبررات باعتبارها

4 - مصطفى سويف : الأسس النّفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، مصر الطبعة الرابعة.د-ت، ص 197

انعكاسات قيّمة للحياة الواقعية، ومن ثم فإنّه - عن طريق معيّن- يُصبح البطل، الملك الخالق، الأثير الذي كان يرغب أنْ يكون دون اللجوء إلى الطريق الملتف الذي يؤدي إلى خلق تغييرات حقيقية في العالم الخارجي، فالشاعر حالم يقظة يكسب رضى المجتمع[5].الفنان يتخيّل، يجمع بين الواقع والخيال بين المُدرَك المرئي والمدرَك الذِّهْني، وقد يربط بين حِسين أو أكثر وخاصة السّمع والبصر، السمع الملون مثلا: المزمار الأحمر[6]

إنّ فكرة التسامي التي قال بها "فرويد" هي نفسها فكرة الإسقاط التي قال بها " كارل غوستاف يونغ 1875 - 1961 " تلميذ "فرويد" باعتبار الإسقاط « **العملية النّفسية التي يُحوّل بها الفنان تلك المشاهد الغريبة التي تطلع عليه من أعماقه اللاشعورية، يحوّلها إلى موضوعات خارجية يمكن أن يتأملها الأغيار**»[7]، لقد أضاف "كارل يونغ" إلى فكرة اللاشعور التي قال بها "فرويد"[8]فكرة اللاشعور الجمعي، بحيث إن اللاشعور الفردي هو مغلقات ماضينا المكبوتة منذ الطفولة، وتحت اللاشعور الفردي يقع اللاشعور الجمعي، وهو الذاكرة المقطوعة لماضينا في الجنس البشري،

لقد كان الأدب ميدانًا خِصْبا للدراسات النفسية، وقد استخرج "فرويد" عقدة "أوديب" من الأدب كما استخرج عقدة "إلكترا"، والنتيجة أن بين الأدب وعلم النفس علاقة وثيقة، والمنهج النفسي واحد من المناهج المطبقة في الدراسات الأدبية.

علاقة الأدب بالفلسفة

تميزت العلاقة بين الأدب ممثلا في الشعر والفلسفة بالعدائية عند "أفلاطون" الذي رأى أن الشعراء يتصفون بالعاطفية على خلاف الفلسفة التي تعتمد على العقل، واعتبر الشعراء في اعتمادهم على المحاكاة يبتعدون عن الحقيقة، فكان مصيرهم الطّرد من جمهوريته، وأبقى فقط على قليل من الشعراء وبشروط، «**وبهذا قامت الفلسفة مع أفلاطون بمحاكمة الشّعر، وأصدرت بحقّه أقصى العقوبات التي يتعرض لها الخونة، فالتّهمة المُوجهة إليه " الشّعر" كانت الخيانة للحقيقة والعقل والمُجتمع، وبالتالي خيانة الفلسفة** » [9] ولم يكن أفلاطون الوحيد الذي ناصب الشعر العداء، فقد ثار عليه "ديكارتRené Descartes"1596-1650 في القرن السابع عشر، و"جون ستيوارت مل John Stuart Mill "1806-1873 في القرن التاسع

---

5 - ويليك و أستين وارن : نظرية الأدب، ترجمة د.عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية 1992، ص116

6 - ويليك و أستين وارن : المرجع نفسه ص115

7 - مصطفى سويف : الأسس النّفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مرجع سابق، ص 203

8 - سيقموند شلومو فرويد يعرف اختصارًا بسيقموند فرويد 1856- 1939، طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي، يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي .وهو طبيب أعصاب أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي.

9 - فراس حمية : عن العلاقة بين الفلسفة والشعر، https://www.ultrasawt.com/ بتاريخ 22 مارس 2020. تاريخ الزيارة 2020/07/05

عشر، و"توماس بيكونThomas Beccon " 1511-1567يعتبره « **نشاطًا متخلفا لا ينتمي إلى روح العصر الذي تُهيمن عليه المعرفة والعقل والتنوير** »[10]

يقول الفيلسوف الأمريكي"جورج بواس George Boas 1891 1980"في محاضرة له بعنوان " الفلسفة والشعر" « **إنّ الأفكار في الشّعر عادة ما تكون بائخةً وخاطئةً، ولن يوجد من تخطى السّادسة عشرة من يرى جدوى في قراءة الشّعر بمجرد ما يقدمه من أفكار**»[11] و"بواس" هنا يشير إلى الشّعر الغنائي. كما أن الشّاعر والناقد" ت.س إليوت 1888-1965" يؤكد أن "دانتي Dante Alighieri 1265-1321"و"شكسبير 1564-1616" لم يقدما فكرًا حقيقيا. لكن هناك من انتصر للشّعر وللأدب من المفكرين والفلاسفة ابتداءً من "أرسطو" الذي تختلف المحاكاة عنده عن محاكاة أستاذه "أفلاطون" ف"أرسطو" يرى أن المحاكاة يمكن أن تكون لما ينبغي أن يكون وليس لما هو كائن، وبذلك فقد أعاد الاعتبار للشعر وقرّب بينه وبين الفلسفة، ووجد هذا الاتجاه صداه من خلال اعتماد كثير من الفلاسفة على الأدب لتقديم أفكارهم، وفي هذا المجال يمكننا الإشارة إلى الشّاعر العربي أبي العلاء المعري الذي يُلَقَّب بفيلسوف الشّعراء أو شاعر الفلاسفة وكذا ابن سيناء ويمكن أن نستشهد بقصيدته عن النفس والتي يقول فيها [12]

1 هبطتْ إليكَ من المحلِّ الأرفَـع ورْقَـــــاءُ ذاتُ تَعَزُزٍ وتَمَـــنُّع

2 محجوبةٌ عن مُقْلَةِ كلِّ عــارفٍ وهي التي سَفَرتْ ولمْ تَتَبَرْقــع

3 وصلتْ على كرهٍ إليك وربّمــــا كرِهتْ فراقك وهي ذاتُ تَوَجع

فابن سيناء يتكلم في قصيدته العيْنية عن النّفس البشرية التي أُمِرَتْ بالدخول إلى الجسد فدخلت كارهةً لأنّها جسمٌ علويٌ ولأن الجسم فانٍ، فقيل لها ادخلي كارهةً واخرجي كارهةً، وهذه فكرية فلسفية عبر عنها ابن سيناء شعريا، وحَدِيثًا وفي الأدب الغربي فقد كان "كولريدج Samuel Taylor Coleridge 1772-"1834من بين الشعراء الرومنتيكيين العظام فيلسوفا صنّاعًا ذا تطلّع عظيم وذا شأن يُذكر، وكان دارسا مدققا ل" إمانويل كانت" Kant 1804- 1724 و"شلنج Schelling 1775-1854 "باسطًا لآرائهم وهناك آثار من "كانت" في شعر "وردز ورث William Wordsworth" 1770-1850، وقد نشر "جان بول "سارتر"Jean-Paul Sartre " 1905-1980فلسفته الوجودية بواسطة الأدب

---

10 - فراس حمية : المرجع نفسه.

11 - رنيه ويليك و أستين وارن : نظرية الأدب، ص 153

12 - عبد علي الحونري م 1053 : شرح عينية ابن سينا للسيد نعمة الله الجزائري وقصيده في الرد على ابن سينا، مطبعة الحيدري، طهران، 1954، ص 18

هناك إذن اتجاهان اتجاه يَمْزِج الأدب بالفكر، واتجاه يُبْعد الفكر عن الأدب، والسؤال هل أنّ الأدب يخلو من الأفكار الفلسفية، وهل تَشَبُّعه بهذه الأفكار يُعْطيه قيمةً أكبر؟

في الحقيقة إنه من الخطأ القول إن الأدب يخلو من الفكر ومن الفلسفة، فلا بدّ لكل قول أن تكون فيه أفكار، ولكن الفرق بين المجالين أن الأدب بصورة عامة لا يَخْدم أفكارا بعينها، وحتى إذا خدمها فهذا لا يزيد من قيمته، وقد دافع "رودولف أنجر Rudolf Unger "عن فكرة أن الأدب ليس معرفة فلسفية ترجمتْ إلى صور وأشعار، وإنما الأدب يعبر عن اتجاه عام نحو الحياة. والشّعراء في العادة يستجيبون بشكل غير منهجي على أسئلة هي أيضا موضوعات للفلسفة وبطبيعة الحال فإن الطرائق الشعرية في تلك الأجوبة تختلف من عصر إلى عصر، وقد عبر بعض الفلاسفة الألمان عن مثل هذه المواقف الفلسفية بما سموه النظر في الكون"Weltanschaumng"فِيلْتْ أنْتْشَاْمنْ"وهي كلمة يتسع استعمالها ليشمل الأفكار الفلسفية والاتجاهات العاطفية معًا[13]. ويمكن هنا أن نقدم رأي "ويلهلم ديلثي Dilthey 1833-1911 "حول الأدب لنعرف طبيعته أكثر.

كان "ديلثي" ضد دعوة الوضعيين الذين دعوا إلى تطبيق منهج العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية والتاريخية بحجة أنها الطريقة الوحيدة لتقدم هذه العلوم؛ باتباع منهجٍ علميٍّ يسمح بالوصول إلى قوانينَ كليةٍ علميةٍ بعيدا عن الذاتية. لكن "ديلثي" يرى أن العلوم الإنسانيةَ تختلف في طبيعتها عن العلوم الطبيعية، وسنتكلم هنا عن الأدب بصورة خاصة. فللأديب تجربةٌ أدبيةٌ، وهي إحساس نحو موضوع مُحَدّد، يتم تجسيده في عمل أدبي بعد مُعايَشة تلك التّجربة وسبْر أغوارها، وعن طريق هذا العمل تبْرُزُ التجربة وتتجسد وتخرج مُتَحَوّلَةً من كونها مُجردَ أحاسيس ومشاعر وخيالات إلى تجربةٍ مكتملةٍ، وإلى كائنٍ فني يأخذ طابع التكامل والوحدة والانسجام بين أجزائه كعمل فني، هذا العمل الفني يصبحُ تجربةً خارجيةً موضوعيةً ماثلة للْعَيَان وقد انتقلت من الفردي والخاص إلى العام والمشترك، الأديب إذن ينقل تلك المعايشة، تلك التجربة، بخلاف الفيلسوف الذي يُقدِّم أفكارَه حول موضوع ما بصفة عامة بمنطق وعقلانية. إذن جوهر العمل الأدبي هو تجربة وهو نقلٌ لهذه التجربة عن طريق اللّغة، وفي شكل فني محدد ومتعارف عليه. ثم يأتي المتلقي فيحصلُ اللقاء بين العمل الفني وبين مشاعرَ وأحاسيس المتلقي التي تُسْتَثَار بهذه القطعة الفنية، وهنا تتحرك الذات القارئة أو المتلقية، تتحاور مع التجربة فتتم عملية الإثراء والتّعرف على النّفس وعلى الآخرين، ويكتسب الإنسان معرفةً جديدةً بل يعيش تجربة جديدةً، عن طريق الإثارة التي يُحْدِثُها النّص فينا «**وفي هذه الإثارة يكمن الجانب الأعظم من الكنز الذي نحصل عليه من الشّاعر**»[14] إن تجربتَنا تتسع وتَتَبَلْور، فنتجه نحو فهم الذّات وفهم الآخر، لا من خلال التَّأمُل العقلي المحض كما هو الحال

13 - رنيه ويليك و أستين وارن : نظرية الأدب، ص 163

14 - نصر حامد أبوزيد : إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، 2014 ص 27

في الفلسفة، بلْ من خلال التجربة فالإنسان « **مشروعٌ في حالة تَخَلُّق، إنّه يفهم نفسه بطريق غير مباشر**»[15]

15 - نصر حامد أبوزيد : المرجع نفسه ص 28